

حوليات جامعة الجزائر

العدد 23
جوان 2013

جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)

ISSN : 1111-0910

حوليـــات

جـــامعة الجـــزائر

العدد 23/ جوان 2013

العنوان:

جامعة الجزائرI بن يوسف بن خدة

02 شارع ديدوش مراد، الجزائر

الهاتف/ الفاكس

021.63.77.27

البريد الإلكتروني:

hawliyatalger@yahoo.fr

لجنة القراءة

1. بوكرا إدريس	كلية الحقوق
2. فيلالي علي	كلية الحقوق
3. بوعارة محمد الكاهر	كلية الحقوق
4. بلحيمر عمار	كلية الحقوق
5. سعيدان علي	كلية الحقوق
6. بن ناصر أحمد	كلية الحقوق
7. سلامي عزيز	كلية العلوم الإسلامية
8. عمار جيدل	كلية العلوم الإسلامية
9. يوسف حسين	كلية العلوم الإسلامية
10. محمد الأمين بلغيث	كلية العلوم الإسلامية
11. محمود بن علي عبد الله	كلية الطب
12. قرنوطي مرزاق	كلية الطب
13. سليم بابا عمر	كلية الآداب و اللغات
14. الحواس مسعودي	كلية الآداب و اللغات
15. منى علام	كلية الآداب و اللغات
16. براق محمد	المدرسة العليا للتجارة
17. بلالطة مبارك	كلية العلوم الاقتصادية
18. رشيد بوسعادة	كلية العلوم الاجتماعية
19. مخداني نسيمة	كلية العلوم الاجتماعية
20. نبيلة وحدي	كلية العلوم الاجتماعية
21. بن روان بلقاسم	كلية الإعلام و الاتصال
22. عطوي مليكة	كلية الإعلام و الاتصال
23. أحمد حمدي	كلية العلوم السياسية

حضور عُمان في الأدب الإنجليزي

د/ هلال الحجري

جامعة السلطان قابوس

سلطنة عمان

مقدمة

يتناول هذا البحث موضوعا نادرا في الدراسات العربية؛ إذ أن عمان، هذا الضلع القصي في شبه الجزيرة العربية، لم يتمتع بحضور في الشعر العربي يليق بأهميته المكانية و خصوصيته الثقافية، على أننا نلمس له حضورا منقطع النظير في الشعر الإنجليزي .

تترد كلمة عُمان على شكل ذبذبات خجولة في الشعر العربي، و لعل أقدم هذه الذبذبات يعود إلى عصر صدر الإسلام، حين كان يضرب بها المثل في النأي و البعد. يقول أبو بكر الصديق (573م–634م):

هلمّوا إلى دين النبي محمدٍ   و لو كان في أقصى جبال عُمانِ[1]

و تعززت هذه الصورة عن بعد عمان في العصور اللاحقة، حتى أن الشاعر الأموي الشهير جرير (648م–728م) حين أراد أن يهجو جشع قوم في الأكل لم يجد لهم مكانا أقصى من عُمان. يقول:

لو يسمعون بأكلة أو شربةٍ   بعُمَانَ أصبح جَمْعُهمْ بعُمَانِ[2]

و تترد في الشعر العربي أيضا صورة أزد عمان؛ إذ كانوا مثالا للعز و منبت الكرامة، و يفرق الشعراء بينهم و بين أزد شنوءة في العراق. و من أوائل الأشعار التي نجد فيها هذه الصورة، قول الشاعر المخضرم السيد الحميري (723م–789م):

و الأزدُ أزدُ عُمَانَ الأكرمون إذا   عُدّتْ مكارمُهمْ في سالفِ الزمنِ[3]

إضافة إلى صورتي النأي و كرامة الأصل، نجد صورة ثالثة تتردد في الشعر العربي القديم و الحديث، و هي صورة دُرَر بحر عُمَان و جواهره بكونها ثمينة ومصدرا للثراء. و لعل من أقدم الأشعار التي تبرز هذه الصورة، قول مهيار الديلمي (ت 1037م) معبرا عن فقره:

يقول لي الغنى و رأى قعودي   عن السعي المُموّل و الطلابِ
أما لكَ في بحار عُمانَ مالٌ   يسد مفاقرَ الحـــــــــاجِ الصِّعابِ
و إنّ وراء بحر عُمانَ مُلكا   رطيبَ الظل فضفاضَ الرِّحَابِ[4]

و في النصف الأول من القرن العشرين نجد بعض الشعراء العرب يتخذ من لآلئ بحر عمان صورة للنفيس من الأشعار و الأفكار. يقول حافظ إبراهيم (1872م–1932م) مثلا واصفا قصائده:

أغريتُ بالغوص أقلامي فما تركتْ   في لـُجّةِ البحرِ من دُرٍّ و مَرْجـــانِ
شكـــا عُمَـــانُ و ضـــجّ الغائصـــون به   على اللآلي و ضجّ الحاسدُ الشاني[5]

إن حضور عمان في الأدب الإنجليزي، و الشعر على وجه الخصوص –كما سيتضح في هذا البحث– مختلف كليا عن هذا الحضور الضامر في الشعر العربي. إنه حضور يستغرق المكان بثقافته و شخوصه. وسنحاول في هذا البحث استكشاف الأدب الإنجليزي، و الشعر خاصة، من القرن السادس عشر إلى وقتنا الحاضر، متتبعين فيه حضور عُمان، مكانا وشخوصا، وثقافة.[6] و نعتقد بأن أهميةِ هذا البحث تكمن في أنه يردم فجوة معرفية كبيرة عن هذا البلد الضاربة جذوره في أعماق التاريخ. و لا يخفى على قارئ هذا البحث صعوبة المهمة التي نضطلع بها؛ إذ أن تتبع مكان معزول في أقصى شبه الجزيرة العربية، مثل عُمان، و رصده في أدب أجنبي يتطلب وقتا و جهدا ينوء بالعصبة أولي القوة من الدارسين، و لكنا نحمد الله

على توفيقه وعونه، ونأمل أن يسهم جهدنا المتواضع في فتح نافذة **أمام** الدراسات العربية المعنية بالأدب المقارن عموما والترجمة خصوصا.

أ- جواهر هرمز، و لآلئ بحر عمان، و بخور ظفار

إن كلمات مثل عمان، و مسقط، و هرمز، و ظفار، و مسندم، و قلهات، والربع الخالي حاضرة بوضوح في الشعر الإنجليزي خاصة في القصائد التي كتبت في القرون من السادس عشر حتى العشرين.

وتحظى هرمز بنصيب الأسد من هذا الحضور في القرن السادس عشر؛ إذ أنها كانت رمزا للثراء الشرقي المفرط الذي ألهب مخيلة كبار الشعراء من أمثال توماس مور، و جون ميلتون، و شيلي، و غيرهم. و لطالما تناقلت المراجع الأوروبية هذه الجملة الشهيرة عن هرمز"إذا كان العالم خاتما، فإن هرمز هي جوهرته". و نجد في وصف الرحالة الإيطالي ماركوبلو الذي زارها في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، ما يؤكد هذا الثراء:"يقصدها التجار القادمون من الهند في مراكب موسوقة بالتوابل، و الحجارة الكريمة، واللآلئ، و أثواب الحرير، و الذهب، و أنياب الفيلة، و العديد من السلع الأخرى، التي يبيعونها من تجار هرمز، و يحملها هؤلاء إلى أنحاء العالم".[7]

و قد نقل التجار و الرحالة الأوروبيون صورة ثراء هرمز و أبهتها إلى كل مكان وصلوا إليه في العالم. و من أجل ذلك نجد اسم هرمز يطلق على نوع غال ومشهور من الحرير معروف في أوروبا يسمى أرموزين (Armozeen)، و هو نوع من الحرير السميك، يميل لونه إلى السواد، و يستعمله عادة القساوسة. وربما كان لنفس السبب أن أطلقت بعض الدول مثل أستراليا، وإيطاليا، و الهند اسم هرمز على شوارع هامة فيها، و كذلك أطلقت بعض

الشركات الملاحية في القرن التاسع عشر هذا الاسم على بواخرها و سفنها التجارية.[8]

يقول الشاعر الإنجليزي جون ميلتون[9]، في مطلع ملحمته الشهيرة الفردوس المفقود:

هناك عاليـــاً على عَرْشِ الدولةِ الملكيةِ،العَرْشِ الذي يفوق بهاؤه كنوزَ هُرمزَ والهند،أو حيث بلادُ المشرق الرائعةُ تـــُغْدِقُ بيدٍ مُوسرةٍ على ملوكِها البرابرةِ الذهبَ و اللؤلؤَ،جلس الشيطانُ مُمَجَّدًا، بجدارةٍ نال ذلك السُّموَّ من الشرِّ؛ومِنْ فَرْطِ قنوطِه تجاوز الأمل،فـــتـــاقَ بنَهَمٍ إلى ما هو أعلى،إلى خوضِ حَرْبٍ غيرِ مُجديةٍ مع السماء.[10]

و يقول الشاعر الإنجليزي وليام سوذبي[11] في قصيدته "معركة النيل":

كي أزركشَ ظفائري

اجرفي يا هرمزُ حوضكِ اللؤلؤيَّ

و يا شيرازُ

اسفكي نبيذكِ

كي أبللَ شفاهي.[12]

و نجد صورة ثراء هرمز الباذخ أيضا في قصيدة للشاعر الإنجليزي السير إدوين آرنولد[13]، حيث يقول في ديوانه في مديحِ سَيدتـي:

لآلـئُ هُرْمُزَ و أصدافُها، أَجْلبُها الآن من هناك

مِنْ مستودعاتِ الحُبِّ المُضيء، و قصرِ العاشق المَسْحُور.[14]

و صورة الثراء هذه لم تكن مقتصرة على هرمز، المملكة العظيمة في شمال عمان، وحدها، و إنما نجد مخيلة الشعراء مأخوذة بـــ "لآلـئ عمان"، و مُرِّها، ومَرْجانها، و فواكهها. و ربما كان الشاعر الإنجليزي الرومانسي الشهير

بيرسي بايش شيلي[15]، في ملحمته الطويلة "ثورة الإسلام"، أول من لفت أنظار الشعراء إلى بحر عمان المرجاني، حيث يقول:

بدا الملكُ واهنــاً على عرشِه وقتَ الظهيرة:
في الليلِ أرسل عبدين إلى غرفتِها،---
أحدهما كانَ خصيًّا شاحبًا ومُجَعّدًا،
تدرّج مِنْ الإنسانية إلى كُلّ الأشياء البغيضة ---
مُشوَّهًا، خانِعًا، منحنيًا.
الآخَرُ كَانَ تعيسًا مُنْذ الطفولةِ
قد أُخْرِسَ بالسُّمِّ؛ لا يعرفُ شيئًا سوى الإذعان:
مِنْ جُزُرِ النارِ جاء،
غوّاصًا رشيقــاً وقويــاً، في بحرِ عُمانَ المَرْجاني.[16]

ثم أكد هذه الصورة الشاعر الأيرلندي توماس مور[17]، في قصيدته "عبدة النار"، التي افتتحها بصورة رومانسية حول سطوع القمر على ضفاف اللؤلؤ في بحر عمان:

هذا ضوءُ القمرِ يَسْطعُ على بحرِ عُمَانَ؛
ضِفافُ لؤلئِها، و جُزُرُ نخيلِها
تستدفئُ بالشُّعَاعِ الليليِّ على نحوٍ رائع،
وتَنَامُ مياهُها الزرقاءُ مبتسمةً.
هذا ضوءُ القمرِ يسطع على حيطانِ هُرْمُزَ،
وخلالَ غُرَفِ أميرِها ذاتِ الرُّخَامِ السُّمَاقيِّ،
تُـسمعُ أصواتُ البوقِ و الصَّنْـجِ،
داعيةً الشمسَ الساطعةَ أن ترحل.[18]

ثم توالت هذه الصور عن عمان و لآلائها "البيضاء كالحليب"، على حد وصف ماديسن جوليوس كاوين[19]، أحد الشعراء الأمريكيين في القرن التاسع عشر، الذي يقول في قصيدة "أرصفة الهُجُوع"، من ديوانه *الشاعر والطبيعة وطريق الصباح*:

على أرصفةِ الهُجوعِ في المواني
شاهدتُ سُفنَ الأحلامِ
قادمةً تـَمْخـُرُ عُبَابَ البحرِ عَبْرَ السَّديم
مُهتديةً بضوءِ القمرِ، و وَمضاتِ سِراجِ الليل[20].
مخازنُها مليئةٌ بغنائمَ
من كُلِّ أرضٍ وزمنٍ؛
بذهبِ أوفير[21]، وآلهةِ اليونان،
و قـُصَاصاتٍ من قصائدَ قديمة.
و أقراصٍ من البـَنـْجِ الكِريتي،
ولفائفَ من حَريرِ اليمن،
و براعمِ السـَّنـَا، وخشبِ الصندل
و لآلئِ عُمانَ الناصعةِ البياضِ كالحليب.[22]

و كثيرا ما ظل يدور في الشعر الإنجليزي، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تشبيه أسنان الحبيبة، أو وجهها، باللؤلؤ أو الدر العماني. و هذا ما يؤكده ماديسون جوليوس في أكثر من موضع في دواوينه. يقول مثلا في قصيدة "الرومانسية الشرقية"، من ديوانه *قصائد*:

كُنْتُ مَلِكـًا. طِوالَ ثلاثةِ أشهرٍ أبحرنا
عَبْرَ الخُلجانِ الخضراء،
ذاتِ الأفقِ القـُرمزيِّ، و المُعَطـَّرةِ بالسَّنـَا[23]

كي أعترفَ بحـــبِّها.
مكتظةً كَانتْ سفينتي الشراعيةُ
بالصّمغِ، والذهبِ،
و الأقمشةِ النفيسة، و خشبِ الصندلِ ذي الرائحةِ العتيقة،
و مُرِّ عُمانَ، الأقلِّ عِطرًا من هذه المرأة،
و مجوهراتِها ولآلئِها، الأقلِّ بياضًا من نهديها.[24]

و لم تكن ظفار في جنوب عمان بمنأى عن مخيلة الشعراء الغربيين، فصورة اللبان أو البخور الظفاري، الذي كانت تتغذى به أرواح الآلهة في المعابد المصرية و الآسيوية، كان لها صدى في قصائدهم. يقول الشاعر البرتغالي لويس دي كيمو[25] في ملحمة "اللوسياد" الشهيرة:

انظرْ إلى جِدّةَ، و حقلِ عدنَ الظامئِ
حيثُ لا تُمطرُ السماءُ أبدا؛
و لا يَخــرُّ نـــُهــَيــْرٌ صافٍ في الوادي
هنا تــتَجلّى نهودُ جزيرةِ العربِ،
هنا تتنفّسُ بَخورَها، هنا قفرٌ صخري؛
و من فوقِ سهلِ ظفــارَ يــَضُوعُ أغلى لــُبـَانٍ في الدنيا،
حيثُ يــُكـَلــِّلُ ضَبَابُه الأضْرِحَةَ المــُقــَدّسة؛
هنا يَتَهلــّلُ جَوَادُ الحرب الأبيِّ في قوّتِه، فهو أسرعُ مِنْ العاصفةِ.[26]

و قد ارتبطت صورة ظفار في الأدب الإنجليزي أيضا بإرم ذات العماد، أو وبار Ubar، أو أوفير Ophir كما جاءت في الكتاب المقدس. و يعتقد عدد من الرحالة الأوروبيين، و علماء الآثار بأن إرم مدفونة تحت رمال جنوب البلاد العربية. فبعض المستكشفين مثل بيرترام توماس، و ولفريد ثيسجر، ووبندل فيلبس قد صرحوا في كتاباتهم بأن "المدينة المفقودة" موجودة في

جنوب عُمان. وفي سنة 1991، نظّمَ منتج الأفلام الأمريكي نيكولاس كلاب Nicholas Clapp بعثتين إلى عُمان مَع فريق، ضم علماء آثار، وجيولوجيين، و علماء فضاء، وبَعْض المُغامرين. و قد فحصوا الأبراجَ في شصر، شمال ظفار، ووَجدوا دليلاً يثبت أن المستوطنةَ تعود إلى 4000 سنة قبل الميلاد. و قد خلصوا من تنقيبهم إلى أن وبار، أو إرم موجدة في شصر.[27] و لعل أبرز النصوص التي كرست في الشعر الإنجليزي لإرم، هو قصيدة بعنوان " جنة إرم" للشاعر الأمريكي بايارد تايلور [28]:

لقد رَأيتُ جنـــّةَ إرَم.
وَجدتُها، صُدْفةً:
دون سبيلٍ أو دليلٍ،
وَجدتُ البُقعةَ المَسْحُورةَ:
بوّابتُها الذهبيّةُ الواسعةُ وقفتْ مفتوحةً على مَدَاها.
كُنْتُ يافعًا، وقويًّا، وشجاعًا، وحُرًّا
كمُهْرٍ نَجديٍّ ناصعِ البيَاض،
والدمُ في عروقِي كانَ كنسْغ الكرمةِ،
يثورُ، ويهتاجُ، و لنْ يَتوقّفَ
حتى تتنفسَ الأزهارُ بالنبيذ
و تنزفَ آخِرَ قطرةٍ من بلْــسَمِها اللذيذ.
لم أشهدْ في حياتي إلا الرماحَ أو السهام،
حتى اكتشفتُ هذا المكانَ في عُمقِ الصحراء،
حيث نــَفــَثــَتْ بوّاباتُ إرَمَ الرائعة
أبّهــَتــَها على أرضٍ مجهولة.[29]

ب- السيد سعيد بن سلطان و جياده العربية الأصيلة:

يتمتع السلطان السيد سعيد بن سلطان (1791-1856) بصورة كاريزمية في الأدب الإنجليزي، شعرا و نثرا. فهذا السلطان الذي امتد حكمه من 1804 إلى 1856، لم يكن في عيون الأوروبيين مجرد إمبراطور شرقي واسع النفوذ، وإنما كان نموذجا لــ "الفارس النبيل". و نجدهم في كتاباتهم يصفونه بصفات النبل، والوسامة، و الشجاعة، و العدل، و التسامح، و الكرم، و التواضع، وهي صفات قلما تجتمع في "الحاكم الشرقي"، الذي يصفه معظم الرحالة والأدباء الأوروبيين بـــ "الاستبداد" و "التوحش".

يصفه الرحالة الإيطالي فينسنزو موريزي، المعروف باسم الشيخ منصور، و الذي كان طبيبه الخاص سنة 1809، بأنه كان "شابا وسيما، مربوعَ القامة، بهيَّ المُحيّا، مُفعمًا بالحيويةِ، لطيفَ المعشر، و كان يمتلك فهما عميقا و تطلعا للمعرفة". و يقول أيضا بأن "حبه الدائم للعدالة، و تميزه بالرحمة، يأسران قلوب الناس، و لا يقتصر تأثيرهما على رعيته فحسب وإنما يمتد إلى عبيده و خدمه".[30] و في سنة 1816، يصفه الرحالة البريطاني وليام هيود بأنه "رجل متوسط العمر، شخصيته جذابة، و يتميز سلوكه بالبساطة و عدم التكلف".[31] و في سنة 1819، زار السيد سعيد أحدُ ضباط البحرية البريطانية، و هو فرانسيس إركسين لوش، و قال عنه بأنه شاب "حُلو الملامح، بَهيٌّ الطلعة، وسيمٌ، أسودُ اللحيةِ و الشارب، معقوفُ الأنف. يبلغ طولُ قامته حوالي خمسة أقدام و عشر بوصات، و تمتاز بالحُسْنِ والتناسق. يتميز عن أقرانه من حُكّام العرب و الفرس بحُسْن المَعْشَر ودَمَاثة الخُلُـق".[32] و في نفس السنة، نجد الضابط البريطاني جورج سادلير يكتب في يومياته عن مقابلته للسيد سعيد، و يقول بأن سلوكه يمتاز "بالود و التواضع، و هو يظهر دوما في أحسن طبع وأطيب مزاج، وقليلا ما تظهر عليه ملامح الغضب".[33]

و في سنة 1821يصفه الروائي و الرحالة الاسكتلندي جيمس بالي فريزر بأنه يتمتع "بشخصية قوية جذابة و لكنها أبعد ما تكون عن القسوة أو الصرامة؛ فمحياه يتسم بملامح لطيفة و بشوشة".[34] و يؤكد هذه الصفات في السيد سعيد الضابط البريطاني جورج كيبل، الذي زار مسقط سنة 1824. يقول كيبل: "أشد ما أعجبنا في الإمام دماثة خلقه و عدم تصنعه في الحديث. إن البساطة الأبوية للشخصية العربية كانت بارزة بقوة في كل شيء يتعلق بمجلسه. و في الديوان اليومي الذي يعقده الإمام، يجلس الجميع سواسية بغض النظر عن مراتبهم. بل إن الشحاتين يحضرون هذا الديوان و يجدون أذنا مصغية من الإمام لسماع شكاواهم".[35]

و لعل أهم صفات النبل و التحضر التي أسبغها الأوروبيون على السيد سعيد بن سلطان تتجلى في وصف الرحالة الإنجليزي روبرت مجنان له سنة 1825. يقول مجنان: "يتسم السيد سعيد بدماثة الخلق في أرقى صورها. و هو في الوقت نفسه ملتزم بتعاليم الدين الإسلامي. و تذكره رعيته بكل حب وإخلاص كما يذكر الأطفال آباءهم. و هو يمارس العدل بينهم بنفسه و يراقب بكل دقة صحة تطبيق القوانين و تنفيذ الأحكام. و لكن حين يقع أحد رعيته في ضائقة مالية فلا يتوانى عن إقراضه ما يحتاجه من المال ليسدده بعد ذلك حين تنفرج ظروفه و بلا أرباح من المال. و باختصار، فإن السيد سعيد في جميع تصرفاته يقف فريدا بين الحكام الآسيويين؛ مما يجعله– دون منازع– الأسد الأكبر في الشرق".[36]

في سنة 1831 زار مسقط رحالة يهودي إنجليزي، اسمه جوكيم هيوارد ستوكلر، و قد استقبله السيد سعيد رسميا في قصره و أكرم وفادته. ويقول عنه ستوكلر: "إن السيد سعيد معروف لدى معظم الرحالة، و من غير اللائق عدم التنويه بذكر هذا الأمير الذي يكرم ضيوفه الأوروبيين ببالغ

السعادة. إنه رجل لطيف و نبيل في حوالي الأربعين من عمره. و هو مقاتل، و تاجر، و حاكم عادل، و محب شهم، يُبَجّله جميعُ أهل مسقط، إن لم يكن جميع العرب في الخليج. و هم يجمعون على عدالة تصرفاته و أحكامه، وسخاء يده، و اهتمامه بإصلاح أحوال رعيته، و تسامحه مع الأديان الأخرى".[37]

و المؤكد أن سمة السيد سعيد في تسامحه مع الأديان الأخرى، وانفتاحه التجاري لكل الشعوب بغض النظر عن جنسياتهم، و ألوانهم، وأديانهم قد نوّه بها معظم الرحالة الأوروبيين و غير الأوروبيين الذين زاروا مسقط في عهده. من ذلك ما يؤكده رجل الأعمال و الدبلوماسي الأمريكي إدموند روبرتس، الذي زار السيد سعيد سنة 1833، ضمن بعثة دبلوماسية، ليتفاوض معه في اتفاقيات تجارية و تفاهمية في زنجبار و مسقط. يقول روبرتس في وصف التسامح الديني لدى السيد سعيد: "إن جميع الأديان، في المناطق التي يهيمن عليها السلطان، لا تحظى بالتسامح فحسب، و إنما تتمتع برعاية صاحب السمو نفسه. و عليه، ليس هناك من عائق البتة يمنع المسيحي، و اليهودي، وغيرهما من ممارسة شعائر دينهم، أو بناء معابدهم".[38] و يقول عن انفتاحه التجاري: "إن السلطان معروف بحبه الشديد للعدالة، و التصرف الإنساني، و هو محبوب كثيرا من رعيته. و ينظر إلى التجارة نظرة عادلة متحررة؛ فهو لا يكتفي بإزالة العقبات عن طريق تقدمها فحسب، و إنما يشجع الأجانب و رعاياه أيضا على ممارستها".[39]

و من الأوروبيين الذين عرفوا السيد سعيد و خبروا نبله و كرمه وعدله، إلى حد أنه لقبه بـــ "عمر الثاني"، كان الرحالة الإنجليزي جيمس ويلستد. جاء ويلستد إلى مسقط سنة 1835، ليقوم بأول رحلة واسعة النطاق يقوم بها أوروبي داخل عمان، و قد وفر له السيد سعيد كل وسائل الدعم

المادية و المعنوية لإنجاح رحلته. يقول ويلستد في وصف نظام حكم السيد سعيد و مزاياه: "ما يميز حكومة هذا الأمير هو اختفاء جميع الضرائب الجائرة، و تجنب الظلم والتعسف في العقوبات، و الاهتمام الزائد بكل التجار القاطنين في مسقط بغض النظر عن جنسياتهم، و بالتسامح العام تجاه جميع المعتقدات. ومن جهة أخرى، فإن نزاهته، و عدم تحيزه، و رأفته في العقاب، مع اهتمامه الدقيق بما يحقق رفاهية شعبه، قد جعلته محبوبا و محترما عند أهل الحضر من رعيته، كما أن سخاءه و شجاعته قد عززت مكانته في نفوس البدو. و جميع هذه السجايا الحميدة قد أهلته للقب "عمر الثاني" في كل أنحاء الشرق".[40]

و نجد قيم التسامح، و العدل، و الشجاعة، و التواضع في شخصية السيد سعيد يؤكدها مختلف الرحالة و الرحالات؛ فهذه سيدة تشيكية من مدينة براغ، اسمها بولين نوستيز، و قد زارت مسقط بصحبة زوجها الدكتور هيلفر سنة 1836، تقول في وصف السلطان: "إن إمام مسقط معروف بأنه أشهر حكام الشرق، و هو نموذج مثالي للأمير الشرقي، الذي يجمع بين أعطافه العدالة، والجرأة، و البسالة، مع التواضع الأبوي. و قد اشتهر أيضا بكونه ليبرالي النزعة، سخيا مع الأوروبيين. و لم يسبق لأحد أن أُعْدِم، طوال حكمه واتساع مملكته، بسبب معتقداته الدينية؛ فقد كان شديد التسامح مع الأديان الأخرى، رغم كونه الرئيس الروحي لطائفته، و القدوة المثلى لرعيته في اتباع تعاليم الدين. و نظرا لبساطة سلوكه فقد كان يسمح لأي كان بالاقتراب منه ومجالسته حتى لو كان متسولا".[41]

لقد ظل السيد سعيد بهذه الصورة المشرقة في عيون الأوروبيين حتى آخر حياته. و من الذين شهدوا نبله و كرمه قبل وفاته بسنة الدبلوماسي الفرنسي آرتير كونت غوبينو، الذي زاره في مسقط سنة 1855. يصف

غوبينو السلطان في هذه المرحلة من عمره، قائلا: " كان السيد سعيد يمسك بيده عصا طويلة يتكئ عليها و هو يمشي بنبل و وقار. بدا عليه كبر السن، ولحيته ناصعة البياض. عيناه سوداوان كريمتان، و سيماء وجهه هادئة جدا وابتسامته لطيفة وروحية. يشع من شخصيته نوع من التوازن بين مشاعر شتى، توازن يعتبر سمة وميزة للرجل الأصيل. كان بالتأكيد أميرا متميزا عن كل الحكام الصغار، الذين أجبرتهم مواردهم الضعيفة أن يكونوا حكاما مغمورين. أما هو، وبسلوكه مسلكا جديدا للغاية، نجح في نيل تقدير جيرانه الأقوياء".[42] و في سنة 1856، السنة التي توفي فيها السيد سعيد، زار مسقط الرحالة الإنجليزي ويليام آشتون شفرد، و قدم رسم هذا البورتريه للسلطان: "إن هذا الشيخ الكبير، بطبعه الكريم، و أبوته الحانية، و وجهه الرجولي السمح، و حاجبيه الكثيفين، و عينيه السوداوين النجلاوين، و فمه المطبق المحاط بشارب فضي و لحية بيضاء تنتهي بطرف مدبب أسفل ذقنه بحوالي ست بوصات، مع ملامح الحزم، و نبل المقصد، و رقة المشاعر، و التصميم، و مع حرارة الاستقبال، و دفء المصافحة، كل هذا يحملك على تقديره واحترامه فورا. و هو فارع الطول، تبلغ قامته ستة أقدام، على بسطة في الجسم، يسير بخطى ثابتة نشطة، و ينتصب بهمة و اعتدال كالرمح....إنه من أنبل الرجال الذين رأيتهم في الشرق".[43]

شاعر أمريكي يمدح السيد سعيد بن سلطان:

زار عمان في القرن التاسع عشر بعض الأدباء الأوروبيين، من بينهم الشاعر الأمريكي فيتش تايلر[44]، الذي توقف في مسقط لمدة أسبوع من 18-25 أكتوبر 1838. كان تايلر قسيسا على ظهر السفينة الأمريكية كولومبيا، التي كانت تحمل طاقما كبيرا و متنوعا من العسكريين و السياسيين والتجار

والكتاب؛ لتعزيز العلاقات الأمريكية مع دول الشرق. خصص تايلر الفصل السابع من كتابه "رحلة حول العالم" لمسقط، نقل فيه رسما جميلا متخيلا للمدينة من جهة البحر، كما تحدث فيه عن شخصية السيد سعيد بن سلطان وأسرته و السخاء الذي أحاطوه به و بطاقم السفينة. كما تحدث فيه عن المعتقدات الدينية الخاصة بالعمانيين، و روح التسامح التي كانوا يولونها للأقليات الأخرى في مسقط من مسيحيين و يهود، و بانيان. كما أنه كان معجبا بالبدو الذين زارهم خارج ضواحي مسقط، فأكرموه و أحسنوا وفادته، حيث يصفهم: "يبدون كالإغريق، بشعورهم الفاحمة ذات العقائص الطويلة المنسدلة على أكتافهم. بملامحهم المشرقة، و ابتساماتهم الرقيقة، و شعورهم الجميلة المعقوصة و اللامعة، ومناكبهم العريضة و سواعدهم المفتولة، كانوا أكثر روعة و فتنة من المكان".[45] و لعل أهم ما جاء في كتاب تايلر هو قصيدة موزونة مقفاة مدح بها السيد سعيد بن سلطان.[46] يقول تايلر:

سُلطانَ مسقطَ، افخرْ، عهدُ مجدكمُ شلالُ ضوءٍ مدى الآفاق ينسكـــــــبُ
خلّـــــدتَ إسمَكَ، مجدُ الشرق يَعـــرفُه و الغَرْبُ ليس بخافٍ عنه ذا النسبُ
عبْرَ المُحيطـــــاتِ جئنــا أمةً مَخَــرتْ عبُابَ بحرِ عُمـــــانٍ.. قلبُهـــــا يَجِـــبُ
يُزجي لك الشكرَ و العِرْفانَ أجمعُها عِشْ سيدا ظافرا دانتْ لك العَـــرَبُ

شاعر بريطاني يندب جَوَادَ السيد سعيد بن سلطان:

كان السيد سعيد معروفا لدى الأوروبيين بحبه للخيل العربية الأصيلة، ولطالما ذكروا في قصص رحلاتهم اصطبلاته الخاصة في مسقط و ما كانت تحتويه من عتاق الخيل و كرامها، و نوهوا بهداياه الثمينة من هذه الصافنات إلى الملكة فكتوريا و من جاء بعدها من ملوك إنجلترا. و قد حدث أن أهدى السيد

سعيد جوادا أسود إلى الملك ويليام الرابع؛ و لكن بعد رحيل الملك فرّط فيه البريطانيون و عرضوه للمزاد سنة 1837 في هامبتن كورت Hampton Court، و اشتراه ملك وارتمبرج Wurtmberg الألماني بمبلغ 580 جنيه استرليني، و كانت حينها قيمة عالية. و قد هال هذا الأمر الشاعر البريطاني فرانسيس هيستينجز دويل Francis Hastings Doyle (1810–1888).[47]
و قد نشر قصيدة طويلة يندب فيها رحيل هذا الجواد العربي الأصيل، و ينعي على البريطانيين جشعهم في بيعه و التفريط في هدية السيد سعيد بن سلطان.
يقول فرانسيس دويل:

أجل! خيــــرٌ لكمْ أن تطلــقــــوه   عَطاءَ المَلْـكِ منقطـــــعَ النظــــيرِ
فــــرُوحُ انجـلترا حقــاً مُحـــاطٌ   بصُغرى الهمِّ و الرأي الحقيرِ
جـــــوادٌ مــــن سنــــيــنٍ خــــالياتٍ   بها كنـــا قلوبا كالنســـورِ
غريـــــباتٍ على زمــــنِ التـــردّي   و تُجّـــارٍ ذوي جشــــعٍ مُبــــيـــرِ
أضاعـــــوا مِنْحة المَلِك المُـــــرَجّى   إلى غُرَباءَ عنه في المصـــــيرِ
تُــــعــبِّرُ عن صِلاتٍ راسخاتٍ   و مَجْــدٍ غابرٍ عبْرَ الدهورِ
أضاعـــــوها و لم يخشــــوا شَنَارا   سيرمي الشرقَ بالحدثِ الشهيرِ
سيجـــني البيعُ و البيّاعُ هُـــزْءًا   جديرا بالعداوةِ و الشُّـــرورِ

ت- الربع الخالي:

هي الصحراء العربية الكبرى، وربما عرفها قدماء العرب بـــ"مفازة صيهد"، ولكن الرحالة الأوروبيين التقطوا اسم "الربع الخالي" من أفواه البدو الذين رافقوهم في اختراقها، وكذلك سماها الجغرافيون العرب المحدثون.[48]

وحقيقتها بحر متلاطم من الرمال يغطي قرابة 200,000 ميل مربّع من جنوب و جنوب شرق جزيرة العرب.

بحر الرمال هذا أصبح، في القرنين التاسع عشر والعشرين، حلبة للمغامرة استهوت معظمَ الرحالة والمستكشفين الأوروبيين. فقد جاء في كتابات الرحالة البريطانيين إلى عُمَان والجزيرة العربية من أوصاف مهيبة لهذه البَرّية الشاسعة ما ألهب أحلام المغامرين لاختراقها ومخيلة الشعراء والأدباء للتغني بها. في عام 1835، استطاع الرحالة جيمس ويلستد من قمّة "الجبلِ الأخضر" أن يرصد هذا المشهد البانورامي للربع الخالي:

"سهولٌ شاسعة من الرمالِ المتحرّكة الفضفاضةِ تمتد علَى مرمى البصر، لا يكادُ البدويُ الشديد يجرؤ على المجازفة في اجتيازها. مشهدٌ ثابتٌ و مُوحِشٌ، لا يمكن أن يكسرَ مظهرَه هضبة أو تغير للون السهول."[49]

ويروي بيرترام توماس عن الرحالة والأديب الإنجليزي ريتشارد بيرتون أنه سمع من مصادر موثوقة من رفاقه البدو أن الربع الخالي عبارة عن:

" أعماقٍ مُرَوِّعة تغصُّ بمجموعةٍ سكّانيّةٍ كبيرة من أنصاف الجوعى. إنها تزخر أيضا بأوديةٍ وأخاديدَ وشعابٍ تتغذى جزئيا بسيول متقطعة، ولهذا فإنها مفتوحة للرحالة المغامرين"[50].

صمويل مايلز، أيضًا، أثناء رحلته من عبري إلى ضنك، في داخلية عمان، ديسمبر 1885، وصل إلى هامش "الصّحراء الكبرى" كما يسميها، وقدم هذا المشهد:

"هذه الصّحراءُ، في الحدود الشّرقيّة التي عليها الآن نقف، تمتد بعيدًا إلى الغرب حوالي 700 ميل، مشكلة المدى الأكبر و الأكثر جدبا من الرمال في قارة آسيا. بوجه عامّ، إنّها مجرّدة من الأنهار، والأشجار، و الجبال والمساكن البشريّة، و غير مكتشفة ولا قابلة للاكتشاف. إنها خالية من الطعام، و الماء،

والطّرق، والظلال، كما أنها تذروها العواصف. وهي أرض الهدوء، والخمول و الرّتابة بشكل قل أن يكون لها نظير في العالم"[51].

كلّ هذه التّحدّيات و عقبات الصحراء المذكورة من قبل الرحالة السّابقين جعلت كلا من بيرترام توماس وجون فيلبي يتسابقان في اختراق الربع الخالي، لكنّ توماس استطاع أن يحرز قصب السبق حين اجتاز هذه الصحراء من صلالة في جنوب عمان إلى قطر عام1931 . ولم يبق لمنافسه جون فيلبي إلا أن يجتازها من الشمال إلي الجنوب عام 1932. كما استطاع الرحالة البريطاني ويلفريد ثيسيجر أن يخترق الربع الخالي مرتين من الجنوب إلى الشمال وبالعكس في الفترة من 1946-1948.

الأوروبيون شدوا الرحال إلى الربع الخالي فكتبوا عنه قصص مغامراتهم مع البدو و "أم السميم" و "عروق الشيبة" و الرمال المتحركة، فكان لذلك صدى في آدابهم عبّروا عنه شعرا وسردا قصصيا و روائيا. فهناك ثلاثة رحالة بريطانيين تركوا لنا أعمالا تعتبر من أروع أدب الرحلات في العالم تدور أحداثها في الربع الخالي: أولها كتاب "العربية السعيدة: عبر الربع الخالي في جزيرة العرب" لبيرترام توماس، صدرت أول نسخة من عام 1932، وثانيها كتاب "الربع الخالي" لجون فيلبي، صدرت أول نسخة منه عام 1933، وثالثها كتاب "الرمال العربية" لويلفريد ثيسيجر، وقد صدرت طبعته الأولى عام 1959. هذه الرحلات، دون شك، أثّرت في أدباء اللغة الإنجليزية فصدرت مجموعات شعرية وقصصية وروائية تحمل عنوان "الربع الخالي" وتتغنى به. فالكاتب الأمريكي لاو كاميرون Lou Cameron أصدر عام 1962 رواية عنونها بـــ "الربع الخالي"، والشاعر الأيرلندي جيري مورفي Gerry Murphyأصدر عام 1995 مجموعة من قصائده اختار لها عنوان

"الربع الخالي" وهو عنوان قصيدة تضمنتها نفس المجموعة، و في عام 1998 أصدر الروائي الأمركي ديفيد ماريون ويلكينسون David Marion Wilkinson رواية عنونها أيضا بـــ "الربع الخالي"، كما أصدرت القاصة الأمريكية شارون ميسمر Sharon Mesmer عام 1999 مجموعة قصصية حملت عنوان إحدى قصصها و هو "الربع الخالي".

النصوص الإنجليزية حول الربع الخالي ثريّة، نثرا و شعرا، و قد ضربت سابقا أمثلة من الروايات و القصص التي نشرت في بريطانيا وأمريكا، وسأسرد الآن أمثلة من القصائد التي استلهمت الربع الخالي دون أن يكون أصحابها قد زاروا عمان بالضرورة. ومن هذه القصائد، قصيدة "الربع الخالي"، لألان سيليتو[52]:

يتأمّلُ في الرُّبع الخالي:

مَعْبدٌ من الرمل يتبدّدُ في عنق ساعةٍ رمليّة. ملامحٌ على أحمالِ الإبل
منطلقة إلى عُمَان أو مسقط
بشعاع ماركاتوري خفي
يحرق الحافرَ و يُوهن السنام.
مفتونا بالربع الخالي، يسافر بقافلته المكوّمة
عبرَ مسالكَ أرضية بدَتْ كتجاعيدَ
لأرضٍ لا مستقرَّ لها، وحبيباتِ رمل ذهبية
صاعدا كثبانا رمادية بمحاذاة أشجارٍ بركانية
وآبارٍ كريهة برائحة الماغنيسيوم
تشرب منها الحيّاتُ والإبل.

و لعل من أهم القصائد التي تناولت الربع الخالي هي قصيدة "الربع الخالي" للشاعر الأمريكي جون كانادي[53]:

في الربيع المبكر –هنا– في الربع الخالي
جبريل هز عصاه على الظهور المحدبة
للسحب الهائجة. إنها تهدر كالجمال الغاضبة
وترعد نحو حقول الفلاحين.
في الليل، أحلم بالعشب مخضرا يتكلم.
ولكن ساعة الهجير، حتى الثرثرة الجافة للجن
تهجر الأودية. الشمس تدلي دلوها،
رغم أن جسدي هو البئر الوحيدة في هذه الصحراء.

ث– عمان الحديثة:

رأينا سابقا أن الربع الخالي، و هرمز، و ظفار، و مسقط، و قلهات، و أماكن أخرى من عمان كان لها صدى قوي في الشعر الإنجليزي منذ القرن السادس عشر و حتى القرن الحالي. و إذا كان حضور عمان في قصائد شعراء مشهورين من أمثال شيلي، و وايت مان، و جون ميلتن، و توماس مور يمثل في الماضي استلهاما رومانسيا للشرق و غرائبيته، فإن تجربة شاعر إنجليزي معاصر مغمور، هو مايك هايويل–ديفيز Mike Hywel-Davies، في مجموعة أصدرها في مسقط سنة 1999، بعنوان "عمان تزورها و لا تنساها "، تمثل بعدا و نوعا آخر من الشعر.[54]

ليس ثمة مصادر تتحدث عن الشاعر، و لكن عبر مقابلة شخصية معه في مسقط يمكنني على الأقل تسليط الضوء على جانب يسير من حياته. ولد مايك هايويل–ديفيز في لندن سنة 1942، و يبدو أنه لم يرغب في إكمال تعليمه الجامعي، فانخرط في العمل المهني مبكرا. كانت أولى زياراته إلى عمان سنة 1977، لكنها لم تدم طويلا، ليعود بعدها مرة أخرى سنة 1990 ليعمل في

شركة النفط العمانية (PDO) مدة أحد عشر عاما، حتى سنة 2001. يعمل حاليا مديرا عاما لمشروع نادي مسقط الريفي للجولف.

هذا كل ما يتوفر من معلومات حول الشاعر، لكن مجموعته التي اشتملت على ستة عشر نصا إيقاعيا، ترصد المكان و الثقافة معا في عمان. النصوص جاءت مصحوبة بروعة الصور التي التقطتها كاميرا الفنانة التصويرية جوليا دي فير ماكلروي (Julia de vere McIlroy)، والتي تربطها بعمان "ذاكرة ثرة سعيدة" لا تقل عن عشرين عاما، كما تقول في مقدمة الديوان.

أهمية قصائد مايك هايويل أنها ترتبط ارتباطا حميميا بتفاصيل الحياة اليومية في عمان. هذا الارتباط الذي يعبر عنه جاستون باشلار في كتابه *جماليات المكان* "بقيم الألفة"، القيم التي تمتلك جاذبية تجعل القارئ يتوقف لا إراديا عن قراءة قصيدة حول مكان ما ليصغي لذكرياته حول ذلك المكان.[55] "قيم الألفة" هذه تزدحم بأصدائها في كل قصيدة من قصائد مجموعة "عمان تزورها و لا تنساها".

في جبل شمس يلتقط مايك هايويل صورةَ شعرية لرجلٍ عجوز، دامعِ العينين، رثِّ الهيئة، يسوم للسيّاحِ مقتنياتِه البسيطةَ من منسوجاتٍ، و حفريّاتٍ، وفضيّات. يتلكأ في التخلصِ منها، و حين لا يُرضيه الثمن يُولي وجهَه، زاهدًا، شَطــرَ الهاوية السحيقة للجبل، ليُطلَّ على غِربانٍ تذرعُ المنحدراتِ في كل حين. يقول في قصيدة "شروق على جبل شمس":

ذَهبيًّا و هادئــًا يَبْزُغُ الفَجْرُ على صَخْرٍ عارٍ، و عَرْعَر

كاشفــًا عن كنوزٍ كانت دفينةً ذاتَ يوم

فــَفتَحَها هَيَجانٌ كارثي

الظلامُ بمرورِ الوقتِ صار دِرْعًا

لتلك المَخْلوقاتِ البطيئةِ الناشئةِ في الأعماق

وهناك قريبًا من السماءِ على مَرْمى البصر

أحافيرُ رائعةٌ مُدَوّرة

تبدو ملساءَ على صُخورٍ رُقــاقيّة

و جُذورُ أشجارٍ عارية.

طائرُ الحُمَيْرَاء يلمعُ قــُرْمُزِيًّا في الظلامِ الباهت للفجرِ

مُخْتَرِقــًا سَلاسِلَ ذُرىً لــِيْلكيّةٍ فاتحة

مُصافحًا سَهْلا من الغافِ المُتناثر

و في الليلِ بدا مُمْتزِجًا بمشهدِ رَجُلٍ شاحبٍ

انعكاسُ دُرَرٍ رائعةٍ تُومِضُ

تُجَاهَ القبّةِ السوداءِ للسماءِ.[56]

و يلفتُ نظرَ هايويل-ديفيز في عمان طريقةُ التحيّةِ الشائعةِ بين البدويّات، وهي رَفعُ البُرْقــُعِ و التصافحِ بأرْنَبةِ الأنف. طريقةٌ يرى فيها من الألفةِ والحميميّةِ ما يشدُّ من روابطِ الصلةِ و "أختيــّةِ الإنسانِ الكامنة" بين النساء. وهايويل-ديفيز الذي جاء من مجتمعٍ قد تحررت فيه المرأةُ من التقاليدِ القديمة، لا يرى غضاضةً في البراقعِ و لا ينظرُ إليها بسخريةِ الخِطابِ الغربي من الحجاب؛ بل يُعظــّمُ الجَمالَ في العيونِ المكحولةِ لظِباءِ الفلاة. ويرى في العينينِ المُدّخــَرتيْنِ وراء البُرقعِ حُريّةً كاملةً تمنح الأنثى أن ترى ما تــُريد:

برَفْعِ البُرْقُعِ و أداءِ التحيةِ

في مَلابسَ حَمْراءَ ومُذَهَّبةٍ بَرّاقةٍ:

"أخبرتْكِ ذلك؟ كَيْفَ استطاعتْ يا عزيزتي؟ "

" سَيكونُ لها طريقُها، ستندمُ يَوْمًا! "

تصاميمُ الرجالِ في حِفاظِهم على أُخْتيـّةِ الإنسانِ الكامِنة

خُططٌ جِدُّ خفيّةٍ لدَرْءِ العيونِ المُتطفـّلة

للدَرْدَشَةِ في رِفـْقةٍ هادئةٍ

أَو مهرجانٌ صاخبٌ لأصواتِ النساءِ

أزياؤهنّ الصارخةُ المَرِحة لـَحْنٌ صريحٌ ضِدَّ بساطةِ الرجلِ

و تـَنِمُّ عن أفكارٍ مُهمّةٍ وبياناتٍ جريئةٍ

العباءةُ مربوطةٌ بإحكامٍ أصمّ

بينما العيونُ المكحولةُ تُحدّقُ يَقِظة

وتَرْقـُبُ الحياةَ في حركتِها و تغيّرِها.

وَمع أَنَّ الحياةَ قَدْ تسهلُ

بالسيّارةِ و المدرسةِ و التلفاز

إلا أنّ قاعدةَ سُلـْطةِ الأجيالِ تَبْقى،

تـُراوحُ مكانَها، جـِدُّ خفيّة.

سيطرةُ الأسرةِ—الأم المتوارثةُ ما زالَتْ تُحدّدُ المَسار

تـُناورُ بندولَ الزمنِ وتـُقاومُ مِزاجَ الدورةِ القمريّةِ.

لكثيرٍ من هذه اللقاءاتِ، والعواطفِ العتيقةِ كالوقتِ نفسِه،

تتزيّى النساءُ بأناقةٍ لإمتاعِ أنفسِهنّ

يَقْضينَ أوقاتَـــهنّ كأخواتٍ

و زوجاتٍ

مصدرُ النفوذِ هذا، شَراكةٌ راسِخةٌ

تـــُعزّزُ بقوةٍ

أُختيـــّةَ الإنسانِ الكامِنَة.[57]

و في قصيدتي "الدخان" و دائرة الزمن"، لعلهما من أروعِ ما في هذه المجموعة، مشاهدُ لا أعتقد أنّ أحدا قد التفتَ إليها شِعريًّا في عمان. في الأولى يصفُ دُخانـــًا يَصّاعدُ بين سَعـــَفِ النخيل، حيث المشهدُ يمتزج مع صورةِ يومٍ من أيامِ العيد في عُمان. هتافاتُ الأطفالِ و هم يمرحون بين النٌخيلاتِ تـــُزنـــِّرُ مشهدَ أشرطةٍ من دُخانِ الخـــُوصِ و الكـــَرَبِ و هي ترفرفُ من سَعـــْفةٍ إلى سعفة، حاملةً معها آمالَ الصغارِ و الكبارِ إلى أفقٍ مجهول، مُخلـــِّفةً وراءَها شَذىً من عَبَقِ الطبيعةِ الأولى. يقول:

الدخانُ

يَغـــْمُرُ طريقَ الأحلامِ والأملِ

بالمستقبلِ كُلّه أمامهم

و يَحْتَشِدُ الناسُ في حفلةِ العيد

وهتافاتُ الأطفالِ السعيدةِ تُرفرفُ

مِنْ سَعْفةٍ إلى سَعْفة

لتسوقَ دموعَ الأمسِ و مخاوفَـــه بعيدا

و تتجرفَ إلى المجهولِ خلال السعفِ الخصيبِ

الذي يُورقُ، برفقٍ،

أشرطةً طليقةً من الدخان

تتسكّــعُ ببُطءٍ فوقَ قممِ النخيل

لتَتدلّى لولبيةً و مَعْقوصةً

كسولةً، آمنةً وسطَ مُروجٍ مُغبرّةٍ

ثمّ تلامسُ، سِرًّا، رُطــبًا ذهبيًّا

و تصعدُ ذاويةً و شاحبة لتتماهى،

و تتلاشى في السماءِ الزرقاءِ

و تتركَ وراءها

شَذا طفيفًا بمرورِها.[58]

و في القصيدةِ الثانية يلتقط هايويل-ديفيز بعينٍ شِعريةٍ ثاقبة مَشهدًا من مشاهدِ الصِّبا التي مَرّ بها كثيرٌ من العمانيين في طفولتِهم القَــرويّة. مشهدٌ يرصدُ فتىً مُطرِقَ الرأس، عن تأمُّلٍ لا عن خنوعٍ، يجتازُ سِكّـــةً غبراءَ من الطينِ و بقايا الخوص، يحثُّ الخُطى إلى الكُــتّــابِ أو المسجد، مُكــتهِلا في حديثِه و تفكيرِه، مُحاصَرًا بزمنٍ لا يَريم، بينما هو يحرقُ مراحلَ العُمرِ شوقا إلى عالــمٍ مجهول:

وقعُ أقدامٍ خفيفةٍ على سَبْخَةٍ و خُوصٍ

تحتَ القدمينِ و ما حولهما يَكمنُ تاريخ

دائرةٌ تــتشكّــلُ من روابطِ اللغةِ و المودّةِ

ذلك المزيجُ مِنْ النغماتِ يتموّجُ على شواطئِ الأمل

رؤىً مُتـــفَتِــّحَةً و مشاريعَ جديدة.

وحيدًا، مُطـــرِقَ الرأسِ، يَحُثُّ خُطاه

على مَوْعدٍ مع ذاتِه الأخرى

جِدٌّ يافعٍ الآن لِيَرْكضَ و يَضْحك

جِدٌّ يافعٍ ليجتازَ نُهَيْرَ الصِّبا

جِدٌّ مُكـــْتهِلٍ لِيُبْرِزَ فهمًا ناضجًا للرؤى

مُتَمرِّدٌ يُحاصِرُه زَمَنٌ لا يَريم

بينما هو يُلِحُّ في سَعْيِهِ لِيَشبَّ عن الطوْق.[59]

هذه بعض من "جماليات المكان" أو "قيم الألفة" –كما يسميها باشلار– تتردد بشكل مدهش في هذه المجموعة الشعرية الصغيرة. صُوَرٌ شعرية لتفاصيلِ الحياةِ في عمان لا تبثُّ روعتَـــها في النفس عبر جسور البلاغة القديمة من تشبيه أو استعارة، و إنما من خلال الكلمات البسيطة و كثافة المشهد.

الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة أن تسلط الضوء على موضوع، نعتقد بأنه مجهول في الدراسات العربية، و هو حضور عمان بمكانها و شخوصها و ثقافتها في الأدب الإنجليزي، حضورا هيمن الشعرُ على شكله و محتواه. و قد يدهش المرء من اهتمام شعراء العالم، خاصة الأوروبيين، بهذا المكان القصي من جزيرة العرب، رغم أن كثيرا منهم لم ير المنطقة إلا من خلال القراءة في كتب التاريخ، أو قصص الرحلات. و لذلك نرى أهمية تتبع هذه الإشارات التي وردت في القصائد المكتوبة بلغات أجنبية، و ترجمتها إلى العربية بغية دراسة هذه الظاهرة المميزة في الآداب الأجنبية. و قد اقتصرنا في عملنا هذا على تتبع ما ورد عن عمان في الشعر المكتوب باللغة الإنجليزية، سواء أكان إبداعا، أو ترجمة، تاركين تحليل هذه النصوص و استكناه صورها لدراسة أخرى في المستقبل إن شاء الله.

الهوامش:

1-أبو بكر، عبد الله بن أبي قحافة. *ديوان أبي بكر الصديق*، تحقيق : راجي الأسمر، (بيروت: دار صادر، 2007)، ص 49.

2-الصاوي، محمد إسماعيل. شرح *ديوان جرير*، ط 1 (القاهرة: مطبعة الصاوي) ص. 581.

3-الأصبهاني، أبو الفرج. *الأغاني*، تحقيق سمير جابر، ط 2 ، ج 7، (بيروت: دار الفكر)، ص. 284.

4-الديلمي، مهيار، *ديوان مهيار الديلمي*، تحقيق أحمد نسيم، ط 1، ج 1 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1925)، ص 36-37.

5-إبراهيم، حافظ ، *ديوان حافظ إبراهيم*، ط 3 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987)، ص 28.

6-من الأهمية بمكان أن نؤكد هنا بأن مصطلح "الأدب الإنجليزي" لم يعد مقتصرا في الدراسات الحديثة على المعنى التقليدي له و الذي يحصره في الأدب المنتج في إنجلترا. يشير كتاب "تاريخ كمبردج الموجز للأدب الإنجليزي" إلى أن الأدب الإنجليزي هو الأدب الذي كتب باللغة الإنجليزية سواء أكان كتابه من إنجلترا أو اسكتلندا أو أيرلندا أو أستراليا أو أمريكا أو أي مكان ناطق باللغة الإنجليزية؛ و لذلك فإن تاريخ الأدب الإنجليزي يشمل روبرت بيرنز و هو اسكتلندي، و جيمس جويس و هو أيرلندي، و جوزيف كونراد و هو بولندي، و إدجار ألن بو و هو أمريكي. انظر:

Sampson, George *The concise Cambridge history of English literature*, 3rd ed (London : Cambridge U.P., 1970), p. 841.

7- خوري، إبراهيم، و التدمري، أحمد ، *سلطنة هرمز العربية*، المجلد الثاني(رأس الخيمة: مركز الدراسات و الوثائق، 1999)، ص 8.

8- يوجد في فينيس في إيطاليا إلى اليوم شارع اسمه Ormesini ، و في أستراليا في منطقة Caloundra شارع اسمه Ormuz Ave. و في بانجيم ، مدينة في مقاطعة جوا بالهند، شارع يسمى "شارع هرمز" Ormuz Road ويبدو أن البرتغاليين قد أطلقوا عليه هذا الاسم حيث آثارهم شاهدة على وجودهم في المدينة. و الاستشراق واضح في إجراءاتهم هذه حيث يمتد من شارع هرمز شارع آخر أطلقوا عليه "شارع الشرق"

Orient Road إلا أن السلطات الهندية يوم 10-6-2002 غيرت اسم شارع هرمز إلى اسم آخر يحمل اسم أحد الرموز الهندية، فأصبح الشارع TB Cunha Road .

و هرمز Ormuz أيضا اسم لباخرة ركاب إنجليزية، صنعتها "شركة الملاحة البخارية الشرقية" سنة 1886، و كان خط رحلتها منتظما بين بريطانيا و استراليا عبر البحر الأبيض المتوسط. و يحتفظ المتحف البحري الوطني، في لندن بصورة لهذه الباخرة.

9 - جون ميلتون John Milton (1608-1674) من أشهر الشعراء الإنجليز في القرن السابع عشر. عرف بملحمته الضخمة "الفردوس المفقود" Paradise Lost، التي استغرق في كتابتها إحدى وعشرين سنة، و تتألف من عشرة آلاف و خمسمائة و ستين سطرا، يضمها اثنا عشر كتابا. تتمركز حول عصيان الشيطان للخالق، و آدم، و تجعل من الشيطان بطلا تاريخيا. ترجم محمد عناني النص الكامل للفردوس المفقود، و نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 2002. و قد اعتمدنا هنا على ترجمتنا الخاصة لهذا المقطع من الملحمة. لتفاصيل أكثر عن جون ملتون، انظر:

Forsyth, Neil *John Milton : a biography* (Oxford : Lion, 2008)

10 -Milton, John *Paradise Lost: a poem in twelve books* (London: S. Simmons, 1674), II, p. 28.

11- وليام سوذبي William Sotheby، 1757-1833شاعر و مترجم إنجليزي، ينتمي إلى المرحلة الرومانسية في الأدب الإنجليزي. لم يحق نجاحا يذكر في شعره، و لكنه عرف كمترجم لأهم الأعمال الكلاسيكية مثل الإلياذة و الأوديسة لهوميروس. انظر:

Lee, Sidney *Dictionary of National Biography*, 1885-1900, Volume 53(London : Smith, Elder & Co., 1885-1900), p. 266.

12- Sotheby, William *The Battle of the Nile : a poem* (London: Cadell and Davies, 1799), p. 11.

13- السير إدوين آرنولدSir Edwin Arnold ، 1832 - 1904، صحفي و شاعر إنجليزي، عمل محررا لجريدة الديلي تيلجراف. عرف نقديا باهتمامه بترجمة الحياة والفلسفة الشرقية في شعره، و من أهم أعماله في ذلك "ضياء آسيا" The Light of Asia، الذي ظهر سنة 1879. و هو عبارة عن ملحمة شعرية حول تعاليم بوذا، حقق من خلالها شهرة واسعة في بريطانيا و أميريكا. انظر:

Kogan, B.R. "Edwin Arnold", *Dictionary of Literary Biography: Victorian Poets After 1850*, 35, (Detroit, Mich. : Gale Research Co., 1985),pp. 9-13

14 -Arnold, Edwin *In My Lady's Praise* (London : Trübner & co., 1889), p. 27.

15–بيرسي بايش شيلي Percy Bysshe Shelley 1792–1822، شاعر رومانسي إنجليزي ، يعد من أشهر الشعراء الغنائيين في المرحلة الرومانسية ، عرف بمواقفه المناهضة للسياسة الإنجليزية، و القيم المحافظة في وقته. من أهم أعماله "لون و سيثنا" Laon and Cythna، و هي ملحمة طويلة هاجم فيها الدين و رجال الكنيسة، فصودرت مباشرة بعد نشر نسختين منها فقط، ثم أعيدت طباعتها سنة 1818 تحت عنوان جديد هو "ثورة الإسلام" The Revolt of Islam. انظر:

Bieri, James. *Percy Bysshe Shelley : a biography* (Baltimore, Md. : Johns Hopkins University Press, 2008).

16- Shelley, Percy Bysshe *The Complete Poetical Works of Percy Bysshe Shelley* (London: Clarendon Press, 1904), p. 114.

17– توماس مور Thomas Moore، 1779–1852، من أهم الشعراء الأيرلنديين الرومانسيين، وكان صديقا لكل من اللورد بايرون، و بيرسي شيلي. له عدة أعمال من أهمها "لالا روخ" Lalla Rookh التي نشرها عام 1817. و كسب منها أموالا هائلة في ذلك الوقت تقدر ب 3000 باوند. لالا روخ عبارة عن أربع قصائد ملحمية، تصف رحلة الأميرة لالا روخ من دلهي إلى كشمير لتتزوج ملك بتشاريا. من بين هذه القصائد الطويلة، قصيدة "عبدة النار" The Fire–Worshippers ، و تعتمد على أسطورة فارسية تدور أحداثها حول قصة حب مأساوية بين عاشقين شابين هما حافظ و هند. انظر:

Mackey, Herbert O. *The life of Thomas Moore : Ireland's national poet* .(Dublin : Apollo Press, 1952).

18 -Moore, Thomas *The Complete Poetical Works of Thomas Moore* (London : Longmans, Green, Reader, and Dyer, 1869), p. 204.

19- ماديسن جوليوس كاوين Madison Julius Cawein، 1865-1914، من شعراء الطبيعة الأميريكان، له ما لا يقل عن ثلاثين كتابا نثريا حول الناس و الطبيعة في ولايته كنتاكي. متأثر في قصائده بشعر تي إس إليوت. انظر:

Perkins, David. *A History of Modern Poetry: From the 1890s to the High Modernist Mode*. (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1976), p. 102.

20 -سراج الليل، أو الحـُباحِب، حشرة ليلية تخرج ضوءا من ذيلها.

21– أوفير Ophir، أرض غنية بالذهب، ورد ذكرها في التوراة، و لعلها إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن، و التي أثبتت بعض الاكتشافات الأثرية أنها موجودة في جنوب عمان، كما سيأتي لاحقا.

22 -Cawein, Madison Julius *The Poet and Nature, and The Morning Road* (Kentucky : J. P. Morton & Co., 1914), p. 207.

23- السنا، نبات عطري، و يعرف أحيانا بالسنمكي.

24- Cawein, Madison Julius *Poems* (Boston : Small, Maynard & Company, 1908), p. 318.

25– لويس دي كيمو Lu□s de Cam□es (1524–1580) شاعر برتغالي عرف بملحمته الشهيرة "اللوسياد" Lusiad التي نشرها سنة 1572، و يعتبرها البرتغاليون ملحمتهم الوطنية، و يضعونها في مستوى ملحمة "الإنيادة" للشاعر الروماني فرجيل. تتمحور اللوسياد حول تمجيد التوسع الاستعماري البرتغالي من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر بقيادة فاسكو دي جاما الذي وصل إلى الهند. ترجم اللوسياد إلى اللغة الإنجليزية الشاعر الاسكتلندي ويليام جوليوس مايكل William Julius Mickle (1735–1788) و نشرها سنة 1776. انظر:

Adamson, John. *Memoirs of the life and writings of Luis de Camoens.* (London : Longman, 1820).

26 -Camões, Luís de *The Lusiad : or, the discovery of India. An epic poem*, translated by William Julius Mickle (Oxford : Jackson and Lister, 1776), v, p. 453.

27 - حول قصة البعثة كاملة، انظر:

Clapp, Nicholas, *The Road to Ubar: Finding the Atlantis of the Sands* (London: Souvenir Press, 1999).

28- بايارد تايلور Bayard Taylor، 1825-1878شاعر و رحالة أميريكي، زار العديد من مناطق الشرق، منها مصر و فلسطين، و الهند، و الصين، و اليابان. انظر:

Ehrlich, Eugene and Gorton Carruth. *The Oxford Illustrated Literary Guide to the United States*. (New York: Oxford University Press, 1982),p. 200.

29-Taylor, Bayard *The Poetical Works of Bayard Taylor* (Boston: Houghton, Mifflin and Company , 1907), p. 67.

30 -Maurizi, Vincenzo, *History of Seyd Said Sultan of Muscat*, 2nd ed. (Cambridge: Oleander Press, 1984), p.18.

31- Heude, William, *A Voyage up the Persian Gulf and a Journey Overland from India to England in 1817* (London: Strahan and Spottiswoode, 1819) , p. 26.

32- Belgrave, Charles, *The Pirate Coast* (Beirut: Librarie Du Liban, 1972), pp. 64-65.

33- Sadlier, Gorge Foster, Diary of a Journey Across Arabia (Bombay: Education Society, 1866), P. 16.

34 -Fraser, James Baillie, *Narrative of a Journey into Khorasan in the Years 1821 and 1822 Including Some Account of the Countries to the North East of Persia* (London: Longman, 1825), p. 20.

35- Keppel, George Thomas, *Personal Narrative of a Journey From India to England*, 2 vols (London: Henry Colburn, 1827), I, p. 15.

36-Mignan, Robert, *A Winter Journey Through Russia, The Caucasian Alps, and Georgia*, 2 vols (London: Richard Bentley, 1839) , II, pp.235–236.

37- Stocqueler, Joachim Heyward, *Fifteen Months' Pilgrimage Through untrodden Tracts of Khuzistan and Persia*, I (London: Saunders and Otley, 1832), pp. 5-6.

38 -Roberts, Edmund, *Embassy to the Eastern Courts of Cochin-China, Siam, and Muscat* (New York: Harper & Brothers, 1837), p. 358.

39- Ibid., p. 361.

40-Wellsted, James Raymond, *Travels in Arabia*, 2 vols (Austria: Graz, 1978), I, pp. 7-8.

41- Nostitz, Pauline, *Travels of Doctor and Madame Helfer in Syria, Mesopotamia, Burmah and Other Lands* , Translated by George Sturge 2 voles (London: Bentley & son, 1878), II, p. 6.

42- Billecocq, Xavier, *Oman: Twenty-Five Centuries of Travel Writing* (Relations Internationals, 1994), pp.198-199.

43- Shepherd, William Ashton, *From Bombay to Bushire, and Bussora; Including an Account of the Present State of Persia, and Notes on the Persian War* (London: Richard Bentley, 1857), pp. 52-54.

44-فيتش تالر Fitch W. Taylor شاعر و قسيس أمريكي، ولد في ميدل هَدام Middle Haddam، كونيكتيكتConnecticut ، 4أغسطس، 1803، و توفي في بروكلن، نيويورك، 23 يوليو، 1865. ذَهبَ إلى مدينة نيويورك في سن الخامسة عشرَ بهدف مزاولة التجارة، لكنه بعدئذ قرر أن يكون كاهنا مسيحيا. تخرج في جامعة ييل سنة 1828، و استلم وظائفه في الأسقفية البروتستانتيةِ، وكانَ كاهن الأبرشية في ميريلند حتى

سنة 1841، حيث عُيِّنَ قسيسا في الأسطول البحري الأمريكي، و كان قبيل موته من أكابر القساوسة في هذه الخدمة. انظر:

Adams, Oscar Fay *A dictionary of American authors* (Boston : Milford House, 1975)

45 -Taylor, Fitch Waterman *A Voyage Round the World in the United States Frigate Columbia*, I (New York: D. Appleton, 1842). P. 187.

46 -Ibid., p. 171.

47–شاعر بريطاني، ولد في ننابلتن Nunappleton في مقاطعة يوركشير لعائلة عسكرية اشتهر منها مجموعة من الضباط البريطانيين. تلقى تعليمه في إيتن و أكسفورد. و لدراسته القانون، أصبح مؤهلا في سنة 1837 لممارسة المحاماة في المحاكم العليا البريطانية. صدرت له مجموعة دواوين منها قصائد متنوعة (1834)، و مصيران (1844)، و أوديب، ملك طيبة (1849)، و عودة الحرس الملكي (1866). وردت قصيدته "أبيات في بيع الفرس العربي الأسود" في ديوانه عودة الحرس الملكي: و قصائد أخرى *The Return of the Guards: And Other Poems* ((Published by Macmillan, 1866، كما أنها نشرت سابقا في مجلةBlackwood's Edinburgh Magazine ، في مايو 1840.

48-الطاهر، علي جواد *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام* (بيروت: دار العلم للملايين، 1976)، ص 123.

49 -Wellsted, James, *Travels in Arabia*, vol. I, (Austria: Graz, 1978) p. 274.

50 -Thomas, Bertram, 'Burton and the Rub' al Khali', *Journal of the Royal Asiatic Society*, (1931), 966-985 (p. 968).

51-Miles, S. B., 'On the Border of the Great Desert: A Journey in Oman', [part II] *Geographical Journal*, 36, (1910), 405-425 (p. 415).

52-Alan Sillitoe, *Collected Poems* (Harper Collins, 1993) .

شاعر و روائي وكاتب مسرحي بريطاني ولد سنة 1928 Alan Sillitoeألان سيليتو في نوتينجهام و توفي يوم 25 أبريل 2010. اشتهر بعد الحرب العالمية الثانية بأعماله التي مجد فيها الطبقة العاملة في بريطانيا وانتمى إلى جماعة أدبية تسمى "الشباب الغاضبون". ترك الدراسة في عمر مبكر وانخرط في أعمال مهنية بمصانع نوتينجهام، ثم واتته الفرصة ليلتحق بالقوات الجوية الملكية كعامل لاسلكي في ماليزيا، عاد بعدها إلى بريطانيا مصابا بالسل. بعد عام 1951 قرر الهجرة إلى الخارج وعاش متنقلا بين فرنسا،

و إيطاليا، وأسبانيا، و طنجة. سيليتو غزير الإنتاج له أعمال تربو على الستين مؤلفا بين قصة ورواية ومسرح وشعر. قصيدته الربع الخالي هذه تضمنتها مجموعته "قصائد مختارة". انظر:

Bradford, Richard. "Alan Sillitoe obituary" *guardian.co.uk*, Sunday 25 April 2010 15.15 BST.

53- Canaday, John, 'The Empty Quarter' *New England Review* (Middlebury College, VT) (20:4) [Fall 1999] , p.57.

جون كانادي John Canaday شاعر أمريكي ولد سنة 1961 في بوسطن. قصيدته "الربع الخالي" وردت أيضا في مجموعته الشعرية الأولى " العالم الخفي" التي صدرت في أبريل 2002 عن مطبعة جامعة ولاية لويزيانا. هذه المجموعة كانت قد رشحت قبل الطبع " لجائزة والت وايتمان" وفازت بها لعام 2001. كانادي نشر أيضا عام 2000 كتابا هاما في النقد عنوانه "الوحي النّوويّ : الأدب، الفيزياء و القنابل الذّرّيّة الأولى (جامعة ويسكونسن) يركّز فيه على العلاقات بين الفيزياء و الأدب في سياق تطوّر الأسلحة النّوويّة. حصل على درجة الدكتوراه في الأدب من جامعة روتجرز في 1995، و يعمل حاليًا كمعلم خصوصي في منطقة بوسطن،حيث يدرس الأدب، الكتابة ، التّاريخ، الرّياضيّات، الأحياء، الكيمياء والفيزياء. وفي عامي 1991 و 1992 عمل كانادي في الأردن كمدرس لأطفال العائلة الحاكمة. انظر:

http://www.poets.org/poet.php/prmPID/671

54- العنوان الأصلي: *Oman Once Visited Never Forgotten* (Muscat: Modern Colour Printers, 1999)

55- باشلار، جاستون ، *جماليات المكان*، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الثانية (بيروت: المؤسسة الجامعية، 1984)، ص 43.

56-Hywel-Davies, Mike. *Oman Once Visited Never Forgotten* (Muscat: Modern Colour Printers, 1999), p. 3.

57- Ibid., p. 19.
58 -Ibid., p. 23.
59- Ibid., p. 25.